سياسة حرب الابادة

إن الفرنسيين و بعد سقوط مدينة الجزائر بأيديهم قد قرروا الاحتفاظ بالجزائر كجزء من ممتلكاتهم فيما وراء البحار وأن يجعلوا الجزائر مقاطعة فرنسية . ولذلك فقد شرعوا في استقدام المستوطنين الأوروبيين إلى الجزائر وتقرر الاستيلاء على أراضي الجزائريين ومنحها لهم ولسان حالهم يقول ونحن لا ننتظر بأن يتنازل الجزائريون عن أراضيهم وعقاراتهم عن طيب خاطر لهؤلاء الدخلاء . ومن هنا تقرر إفراغ الجزائر من أهلها حتى يتسنى لهم توطين الأوروبيين في مكانهم .

" السعوا أول من ترونه واستمدوا حياتكم من موته" هذا هو دين المستعمر الفرنسي في الجزائر طوال وجوده فيها . ولقد كان من أبرز المتحمسين لتك السياسة الجنرال كلوزيل Bertrand Clauzel والذي عاش لفترة في أمريكا الشمالية وتوهم أن سياسة التهجير والإبادة الجماعية التي مارسها الأوروبيون هناك ضد الهنود الحمر ستنجح أيضا في الجزائر . ولكن هذه السياسة الخرقاء قد لقيت معارضة من قبل بعض الفرنسيين أنفسهم مثل الإمبراطور نابليون الثالث والذي أعرب عن رأيه في رسالة بعث بها إلى الحاكم العام مكماهون Edme Patrice Comte de Mac-Mahon في العام 1865 والتي جاء فيها بأنه لا يمكن القضاء على ثلاثة ملايين من الجزائريين أو رميهم في الصحراء كما فعل الأمريكان بالهنود الحمر . وهذا طبعا لأنه قد كان على علم تام بنوايا الفرنسيين تجاه الجزائريين وأنهم عازمون على إفنائهم وإبادتهم . تلك النوايا التي ترجمها المستعمر على أرض الواقع ورآها ذلك الإمبراطور متجسدة فيما ارتكبته جيوش فرنسا من أعمال التقتيل والتخريب والحرق والنهب والسلب والتشريد وقطع الرؤوس ما لا يمكن وصفه .

المؤرخ الفرنسي الشيوعي جاك جوركي Jacques jurguet يخبرنا بأن فرنسا قد قتلت 10 ملايين جزائري خلال حقبة ليلها الاستعماري الطويل . وإننا لنجد بأن رقم 10 ملايين شهيد يمثل فقط العدد الظاهر ممن قتلتهم فرنسا من أبناء الشعب الجزائري .

نماذج من عمليات الإبادة الجماعية الفرنسية في الجزائر:

يخبرنا شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله بأن عملية إبادة سكان الجزائر وتفريغها من أهلها قد بدأت منذ اللحظة الأولى لسقوط مدينة الجزائر بيدهم حيث قاموا بترحيل كل من له علاقة بالأتراك نحو آسيا الصغرى وحلوا هم محلهم في الثكنات العسكرية ونفس الأمر حدث مع الأبراج وفيلات الأتراك التي طردوهم منها وسكنوها هم وكلامه هذا لا يجانب الصواب أبدا فهم بالفعل قد بدؤوا في عملية إبادة الجزائريين وقضيتهم قد أصبحت مسألة وقت وفقط وهذا ما نستنتجه من قول أحدهم من أن مسالة العرب قبرت نهائيا ، ولم يبقى لهم سوى الموت أو الهجرة أو قبول الخدمة عند أسيادهم ، هل يستيقظون قبل أن تطلق عليهم رصاصة الرحمة ؟.

نعم لقد بدؤوا في إطلاق رصاص الرحمة علينا فلقد جاء في كتاب جرائم فرنسا في الجزائر ما يلي : " اكتسبت الحرب التي شنها الجنرال بيجو ضد الشعب الجزائري بالطابع الإجرامي والعنف إلى حد أن

سكان الجزائر تناقص حسب تقرير احد الضباط الفرنسيين من 4 ملايين إلى ثلاثة ملايين نسمة في مدى سبع سنوات بل إن حمدان بن عثمان خوجة صاحب كتاب المرآة يقول في تقريره هذا وكما هو معلوم للعام وللخاص من أن سكان الجزائر قد تناقصوا من عشرة ملايين إلى ثلاثة ملايين نسمة .

ولقد حرصت الدولة الفرنسية منذ سنة 1830 على تطبيق وصايا جنرالاتها الغزاة الذين أجمعوا على أنه من أجل السيطرة على هذه البلاد لابد من إبادة أهلها الأصليين . ولذلك فقد كانوا يتخذون كل الإجراءات الصارمة للإطاحة بالقبيلة المنوي تدميرها بقوات كبيرة ، بحيث يكون الهرب مستحيلا لأي مخلوق، لقد كانوا يقتلوننا بكل قسوة ووحشية لأنهم كانوا مقتنعين بذلك فها هو الرائد مونتانياك يعترف بجرائمه لكونه كان مقتنعا بأن العرب ما فوق الخمس عشرة سنة يجب أن يعدموا أفضل من إيداعهم السجن بغض النظر عن عرقهم وجنسهم لأن هذه هي الطريقة المثلي لمحاربة العرب وإخضاعهم لأن العرب لا يخضعون إلا للقوة . اما الضابط ليو Léo كتب في العام 1843 عن الأعمال الوحشية بمنطقة شرشال بقوله : " لقد هدمت كثيرا من الدواوير وأزيلت من الوجود قرى بكاملها بعد إشعال النيران فيها وقطعت عدة آلاف من أشجار التين والزيتون وغيرها " أما الرائد ويستي westée فيقول : " إن الدواوير التي أحرقت والمحاصيل الزراعية التي أتلفت ، لا تكاد تصدق ، فلم يكن يرى من الجانبين من الطابور سوى النيران ".

وتلك الإبادة قد شملت الرجال كما شملت النساء أيضا فقبيلة العوفية قد أبادها الجنرال ورفيقو بكاملها في ليلة الخامس من افريل 1832 وكان عدد أفرادها 12000 جزائري نعم أبادها عن بكرة أبيها وأقام معرضا بباب عزون وكان الناس يتفرجون على حلى النساء ثابتة في سواعدهن المقطوعة وآذانهم المبتورة " هكذا تتم عملية الحرب مع العرب فيجب أولا وقبل كل شيء قتل كل رجالهم من سن 15 سنة فما فوق والاستيلاء على النساء والأطفال ثم إرسالهم إلى جزر الماركيز أو إلى أية جهة أخرى وبكلمة مختصرة إفناء كل ما من شأنه أن يزحف تحت أقدامنا كالكلاب ". وكانت تلك المجزرة فاتحة لمجازر عديدة تلتها فيما بعد.

نعم إنه وأينما حل الفرنسيون تحل معهم لعنة حرب الإبادة في حق الجزائريين فها هي مدينة البليدة ستكون هي الأخرى مسرحا لجريمة حرب إبادة جديدة هذه الجريمة والتي وصفها حمدان بن عثمان خوجة بالقول قام : " الجنود الفرنسيون بأعمال وحشية في المدينة وأحدثوا مجزرة رهيبة ، لم ينج فيها رجال ولا نساء ولا أطفال هناك من يذكر أنه تم تقطيع بعض الرضع من صدور أمهاتهم. ووقع نهب في كل مكان ولم يستثنى حتى الجزائريين الذين فروا إلى هذه المدينة لينجوا من ظلم الحكومة الفرنسية وليجدوا وسائل تمكنهم من العيش ، إنني هنا بكل نزاهة ولا أروي وقائع الأحداث إلا كما جرت. وهكذا فإن عددا كبير ممن لم يكونوا يفكرون في خيانة الفرنسيين ، ولا حتى في معاداتهم ، قد وقع تقتيلهم في هذه الظروف " وجريمة البليدة هذه قد وقعت ضد السكان العزل وهذا على إثر مهاجمة المقاومة الوطنية للحامية الفرنسية بها . في يوم 26 نوفمبر 1830 قد أقدم الضابط ترو لير troulaireعلى إصدار أمر إلى وحداته العسكرية بمحاصرة بلدة البليدة الآمنة وأقدمت على تقتيل جميع سكانها البالغ عددهم قرابة الألفين مواطن

وفي الظهرة نجد جريمة أخرى لا يمكن لنا توصيفها هل هي أكثر جرما من الجرائم السابقة أو أقل منهم جرما لأن كل جريمة يمكن أن تعتبر هي الأكثر وحشية ولا يمكن أبدا المفاضلة بين تلك الجرائم عمليات وقعت هذه المحرقة بتاريخ إلى 20 يونيو 1845 ضد قبيلة أولاد رياح مغار الفراشيح بجبال الظهرة على يد الجيش الفرنسي بقيادة العقيد إيمابل بليسييه الذي تلقى الأمر من الحاكم العام للجزائر روبير بيجو وتضمنت رسالته» إذا لجأ هؤلاء قطاع الطرق إلى مغاراتهم فتصرف معهم مثل تصرف كافينياك بقبيلة صبيح أحرقهم حتى يموتوا كالثعالب «وذلك بعد أن ساندت قبيلة أولاد رياح وعدة قبائل أخرى الشريف بومعزة خلال مقاومته للاستعمار الفرنسي، بتاريخ 17 يونيو 1845 قام كل من إيمابل بليسييه وأشيل سان أرنو بتعقب أفراد القبيلة، حيث تم محاصرتهم بتاريخ17' 18 جوان 1845 داخل مغارة الفراشيح بعد أن لجأت إليها هذه القبيلة بجميع أفرادها شيوخاً، نساءًا وأطفالاً، خلال اليوم التالي تم جمع أكوام الحطب والكبريت والقش وأشعلت النيران في مداخل المغارة لمدة أكثر من 20 ساعة، وفي الصباح وُجد ما بين 760 و1800جثة متفحمة

ثم ها هو العقيد بان pein يكرر نفس المشهد في مدينة الاغواط سنة 1852 يحدثنا بان بنفسه فيقول : " لقد كانت مذبحة شنيعة حقا ، كانت المساكن والخيام التي في ساحة المدينة والشوارع والأزقة ، والميادين ، كانت كلها تغص بالجثث . إن الإحصائيات التي أقيمت بعد الاستيلاء على المدينة وحسب معلومات استقيناها من مصادر موثوقة ، أكدت أن عدد القتلى من النساء والأطفال 2300 قتيل ، أما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب بسيط هو أن جنودنا كانوا يهجمون على المنازل ويقتلون كل من وجدوه بلا شفقة ولا رح "

نعم لقد أبيد ثلثي سكان الأغواط في ما اصطلح عليه بعام " الخلية " في ديسمبر 1852 حيث أنه وعندما سقطت المدينة في 04 ديسمبر من نفس العام فقد أباد الفرنسيون 2500 شهيد من مجموع 3500 كانوا يسكنون المدينة مع استخدام مادة الكلوروفورم كسلاح كيميائي ضد المدينة . وماذا عن عام الشكاير أي الأكياس بتعبير الجزائريين والتي ألبسها الجيش الفرنسي لمن بقي حيا من سكان الأغواط من بعد تلك المجزرة الرهيبة ثم حقنوهم بالغاز وأشعلوا فيهم النار أحياء

وفي شهادة لقد قتلنا رجالا يحملون رخص المرور التي أعطيناها لهم ، كما أننا ذبحنا كثيرا من الجزائريين تشبه عارضة ، لقد أبدنا قبائل بأكملها تبين بعد أنها بريئة ، لقد حاكمنا رجالا يقدسهم السكان الجزائريون لا لشيء إلا لأنهم تجرؤا على التعرض لبغضنا ، وقد وجدنا القضاة الذين حكموا عليهم ، والرجال المتدينين الذين نفذوا عليهم أحكام الإعدام ، لقد كنا أكثر وحشية من السكان الذين جئنا لتمدينهم

ولقد حدثت تلك الفظائع لأن فرنسا كانت تريد أن تجعل من الجزائر قطعة غربية وهذا لا يتأتى إلا بإحلال شعب مكان الشعب الجزائري فيها . خاصة وأن كل الفرنسيين في بداية الاحتلال كانوا شبه متفقين حول هذه النقطة فها هو منظر الاستعمار الفرنسي في الجزائر أرموند فيكتورهان A.V.Hain قد وجه في العام 1832 نداءا إلى الفرنسيين بالجزائر يخبرهم فيه باستحالة إدماج السكان الأصليين ولذلك فهو يرى بأنه عمل مشروع طردهم إلى الصحراء ، أو إبادتهم ، في حالة المقاومة . وما دام الجزائريون سيقاومون الاحتلال وكتحصيل حاصل فالفرنسيون سوف يبيدونهم أو على الأقل سيحاولون إبادتهم وهذا ما حدث فعلا . وعندما لم يستطيعوا إبادتهم فقد طردوهم وكما خططوا لذلك إلى المناطق الجبلية الجرداء وإلى المناطق الصحراوية آملين في أن تكمل الظروف الطبيعية القاسية ما عجزوا هم عن فعله وتنجزه بالنيابة عنهم أو على الأقل تحد من زيادتهم السكانية مما يضمن عدم الاختلال السكاني لصالح الجزائريين . وإن لم تُجْد هذه الحلول فيجب نفي الشعب الجزائري إلى الجزر البعيدة والنائية مثل جزر الماركيز Îles Marquises في المحيط الهادى ولكن هذا الحل لم يكن ممكن عمليا لما يحتاجه من إمكانات مادية وبشرية ضخمة . ولذلك فإن الحل الممكن بيدهم هو إبادة الشعب الجزائري هنا بالجزائر وذلك عن طريق ابتلائه بكل ما يؤدي إلى إبادته . والأسلحة هنا هي الفقر والجوع والمرض وهؤلاء هم الحلفاء الأقوياء للنظام الاستعماري في الجزائر والذين قد تم تسليطهم على الشعب الجزائري والنتيجة كما رأيناها سابقا في عدد ضحايا تلك المجاعات الغير مسبوق في الجزائر .

ونتيجة لكل ما سبق فقد تناقص عدد الجزائريين فقد كانوا في العام 1830 والإحصاءات هنا مختلفة فمنها من يعطينا رقم 4 ملايين نسمة ومنهم من يعطينا رقم 10 ملايين نسمة ليصبح العدد 2.5 مليون فقط في العام 1885 ترى أين ذهب الفارق بين هذه الأرقام ولئن كان حمدان بن عثمان خوجة صادقا في تقديراته فتكون فرنسا وخلال 50 عاما قد أبادت 7.5 مليون نسمة من سكان الجزائر ووسائلها هنا هي الرزايا ومطاردة الإنسان كما يخبرنا بذلك الكونت ديريسون والذي يذكر في كتابه مطاردة الإنسان المذكور أعلاه فيخبرنا بأنهم قد أتوا :" ببرميل مملوء ة أذانا غنمناها أزواجا من الأسرى " . في كل غزوة يأتون بهذا الكم الهائل من أزواج الآذان في البراميل وكل برميل كم فيه من أذن وكم رزية قاموا بها وعليها فكم هو مجموع ضحاياهم من الجزائريين في حرب إبادتهم هذه ؟ .

ليس فقط القرن التاسع عشر والذي يسميه عباس فرحات بقرن الأحزان من مارست فيه فرنسا الاستعمارية سياسة الإبادة الجماعية ضد الجزائريين بل هناك عدة مناسبات كانت تتجدد فيها هذه السياسة ولعل أبرزها إقحام الجزائريين في حروب فرنسا التي لا تعنيهم ووضعهم في الصفوف الأولى لينالوا مصيرهم المحتوم كما هو الحال في الحربين العالميتين الأولى والثانية . وخلال فترة ح ع 2 ونتيجة لظروف الحرب فقد أبيد الجزائريون حتى أن هناك منازل قد أفرغت من سكانها نتيجة للثالوث الأسود وعلى رأسه الجوع والمرض فها هو طبيب فرنسي زار الجزائر في 1945 ويدعى جورج توماس George Thomas كتب يقول كنت في الجزائر سنة 1945 وقت المجاعة ... عندما كان الآلاف يموتون جوعا

... كما شاهدت القمع ورأيت 200 شخص يموتون من داء الملا ريا في غرداية . وكم مثلهم أو قل أضعافهم يا دكتور قد سقطوا في المناطق المختلفة في الجزائر العميقة ولم يكن هناك شهود عليهم فلفهم رداء النسيان الرهيب وسقطوا من ذاكرتنا الفردية والجماعية لتعيش فرنسا الحرية وعصر الأنوار ؟ .

ولما انتهت الحرب الكونية الثانية حصد الرصاص الفرنسي أكثر من 45 ألف شهيد في ظرف أسبوعين وهذا في مجازر 8 ماي 1945 وهذه قد كانت محاولة لإبادة الجزائريين لأن كفة الميزان الديمغرافي قد مالت وبصورة نهائية لصالح الجزائريين وهذا ما أرعب ويرعب المستوطنين فأوعز لهم عقلهم المريض اللجوء إلى الحل الأخير على طريقة النازيين . نعم لقد قتلوا وفي ظرف أسبوعين وأثناء مجازر 08 ماي 1945 أكثر من 45 ألف شهيد كأقل تقدير هذا في ظرف أسبوعين . ولكن العمليات العسكرية في الجزائر قد استمرت ولمدة تتجاوز الأربعين عاما أي من العام 1830 وإلى العام 1871 تاريخ نهاية مقاومة الشيخ المقراني وعليه فمن حقنا أن نتساءل كم من الجزائريين أبادت فرنسا طوال تلك الفترة الزمنية والتي حدث ما حدث فيها في لحظة غفلة من الزمن .

وبالموازاة مع حرب الإبادة هذه والجارية على قدم وساق ضد الجزائريين فإن تيارا آخر مضادا من الهجرة الأوروبية يسيل باتجاهها كالسيل الجارف على اعتبار أن احتلال الجزائر فرنسيا ولكن استيطانها أوروبيا وهذا وكما هو معلوم للجميع ولذلك فقد تدفق الأوروبيون على الجزائر ومنذ اللحظة الأولى لعملية الغزو والهدف كان واضحا هو أن تصبح الجزائر وكما قال الجنرال بيجو سان دومنع جديدة وللعلم فإن سان دومنغ هي مستعمرة إسبانية ثم فرنسية تقع في البحر الكاريبي كما أننا كلنا نعلم كيف كاد سكانها من الهنود الحمر أن ينقرضوا لصالح الرجل الأبيض المستوطن وهذا بفعل الحروب التي شنها الأوروبيون عليهم وبفعل العمل القسري وسياسة التجويع والتعذيب وكلها أساليب استخدمها الاستعمار الفرنسي في الجزائر وكما أدت إلى إبادة سكان سان دومنع فسوف يكون لها نفس الأثر في الجزائر أيضا . كما صرح الجنرال كلوزيل للمعمرين في 10 أوت 1835 قائلا : " لكم أن تؤسسوا من المزارع ما تشاءون، ولكم أن تستولوا عليها في المناطق التي نحتلها وكونوا على يقين بأننا سنحميكم بكل ما نملك من قوة وبالصبر والمثابرة سوف يعيش هنا شعب جديد، وسوف يكبر ويزيد بأسرع مما كبر وزاد الشعب الذي عبر المحيط الأطلسي واستقر في أمريكا من بضعة قرون " .

ولأجل تحقيق تلك الغايات السابقة وعلى رأسها جعل الجزائر فرنسية فقد بدأ الاحتلال في توطين شذاذ الآفاق ممن أكبتهم السفن القادمة من مارسيليا واسبانيا والذين هم لا ذمة ولا ضمير لهم وإنما هم بلاء مستطير متكالبين على بيع العقارات تكالب الجياع على القصاع 106 نعم لقد تطور الاستيطان الأوروبي فمثلا في العام 1843 وصل إلى الجزائر 14 ألف و137 مهاجرا وكانوا خليط من الفرنسيين والألمان ولإرلنديين والسويسريين 107 . ليتضاعف عدد المعمرين وبسرعة ليصل فيما بين العامين 1839 / 1850 تعداد 497 63 معمر ثم إلى عدد 641 675 بين سنتي 1921 و 1929 108 . وليصبح عددهم عشر سكان الجزائر في العام 1962 حوالي المليون معمر . علما بأن عدد المستوطنات الفرنسية

في الجزائر قد بلغت هي الأخرى عدد 150 مستوطنة في العام عام 1850 وليرتفع العدد إلى 207 مستوطنة في العام 1880 وفي عام 1920 وصل العدد إلى 217 مستوطنة . 109 .

ولقد كان : " إعمار الجزائر ديموغرافيا بفرنسيين أصليين ، كان هذا غير ممكن بالعدد المطلوب بسبب العجز الديموغرافي الفرنسي المزمن . مما دفع فرنسا الاستعمارية تبني سياسة الاستيطان الأوروبي الواسع للجزائر والذي يتمثل في الإسبان والبرتغاليين و المالطيين " . وهذا لكون سياسة التقتيل والنفي الجماعي والتي مارستهما فرنسا وعلى نطاق واسع قد تركا مناطق شاسعة من الجزائر خالية من السكان ولذلك عجزت فرنسا عن تعميرها بالفرنسيين الأقحاح فاستعانت في هذا بباقي الجنسيات الأوروبية الأخرى لتغطية العجز السكاني الخاص بالاستيطان في الجزائر وهذا لكون فرنسا في بداية احتلالها للجزائر كانت تعرف عجزا في حيويتها السكانية وحتى ألمانيا وبريطانيا لم تحافظا على وفرة الزيادات السكانية ولو كان الأمر عكس هذا لغمرتا الجزائر بسيل من الأوروبيين ويقول هنرى فابرود Henri Faberod صاحب كتاب الجزائر الفرنسية بأنه لم حدث ذلك لكان في الجزائر اليوم 7 أو 8 ملايين على أقل تقدير في الجزائر مقابلين 3 ملايين أو أربعة ملايين من المسلمين ويعقب فرحات عباس عن هذا الكلام بقوله نعم لو كانت لفرنسا حيوية تناسلية قوية لتحقق حلم بيجو و لأصبحت جريمة الاستعمار جريمة تامة كاملة وبعد هذا نقول بأن معالم سياسة الإبادة الجماعية لا تظهر فقط في قتل الرجال وإنما هي قبائل بكاملها أبيدت وأعراش كاملة محيت من الوجود ناهيك عن بقر نساء الحوامل وجرائم النفي والتشريد وسياسة صيد الرؤوس والتي طبقت في الجزائر لهي مستوحاة من سياسة صيد رؤوس الهنود الحمر في الو م أ كشعب وخاصة تلك التي تمت ممارستها ضد شعب السانتي والقاطن في منطقة البراري العظمى .

وما زاد من فظاعة حرب الإبادة تلك والتي نشتها علينا الاستعمار الفرنسي وجعل من القرن التاسع عشر قرنا عصيبا جدا على الجزائريين هو تلك النوعية الرديئة للجنود الفرنسيين العاملين في الجزائر والذين لا علاقة لهم بالحرب ولا بقوانينها لأنهم من حثالة المجتمع ومن وصعاليكه فها هو القبطان كلير clair يخبرنا بأنه : " لا بد من الاعتراف بأنني كثيرا ما واجهت صعوبات مع الجنود الذين تتألف منهم سريتي فأصل هؤلاء الجنود كما لا يخفى عليكم من السجون ومن حثالات الجيش " وما يصدق على الجيش وجنوده يصدق أيضا على المعمرين المدنيين وعلى رأسهم المالطيين والذين يصفهم كافينياك بأنهم كانوا : " خنازير تمشي على قدمين قد انغمسوا في النخاسة والوحل "